تاريخ الإرسال: 2016/01/19 - تاريخ القبول للنشر: 2016/05/19 تاريخ النشر: 2016/06/28

من الهوية الحقيقية الى الهوية الافتراضية

بهناس سعيد عادل

جامعة الجزائر 3

مقدمة

اكتسحت التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال مختلف المجالات وأضحت المسافات بين الدول والأفراد بالكاد تذكر في زمن حوّل عبارة ماكلوهان «العالم قرية صغيرة» الى جهاز التحكم أو الفأرة أو حتى الشاشة الملموسة Touch Screen، وهكذا شكّلت الانترنيت أو الأداة التطبيقية للعولمة عالما موازيا للعالم الواقعي؛ بعلاقات جديدة متعددة ومتشابكة؛ ولغة الكترونية خاصة، وتواصل عبر شبكات تنقل المرء من مكانه إلى أي مكان دون أن يبذل كبير جهد، فقط عليه أن يقدم أفكاره وآراءه ويعرّف بنفسه لمن يتواصل معهم ويتعرّف عليهم؛ لكن هل الهوية التي يقدّمها عبر هذا العالم الافتراضي هي ذات الهوية التي يتميّز بها في العالم الواقعي؟ ما مميزات الهوية الافتراضية ولماذا يلجأ المبحرون عبر الانترنت الى هوية أخرى تختلف عن تلك التي تميّزهم؟

لمعالجة هذا الاشكال تم اقتراح الخطة الآتية؟

أولا: الهوية والعولمة الإعلامية

ثانيا: المجتمع الافتراضي وخصائصه.

ثالثا: الهوية الافتراضية وخصائصها.

رابعا: لماذا الهوية الافتراضية.

خامسا: هل نحتاج لعلم نفس افتراضي؟

أولا: الهوية والعولمة الإعلامية

أ/تعريف الهويّة:

تتفق تعريفات الهوية وإنْ تعددت على أنّها: تعني فهم الفرد لذاته في علاقاته بالآخرين، حيث لا تتوقف الهوية بما هو نفسي وشخصي إذ تمتدّ نحو ما هو اجتماعي من خلال التفاعل مع الآخرين، كما تعني الهوية المنبع الذي ينهل منه الأفراد في تذليلهم لمعاني الأشياء والأحداث، إذ يبني الفرد معنى لشيء ما أو حدث ما انطلاقا من مميزات سوسيو ثقافية ترتبط به[1].

أمّا هوية الأمة فتتحدد بعلاقتها مع الأمم الأخرى، إذ تتكون الأمة من مجموعة أفراد لهم قواسم مشتركة من عادات وتقاليد وتاريخ يمكن من خلالها تمييز أنفسهم عن الآخرين حيث تتشكل هوية الأمة بعوامل الجغرافيا والتاريخ والعادات ورموز السلطة والدين متفاعلة فيما بينها في نطاق السياق الاجتماعي والثقافي وفي حدود زمانية[2].

ب/مفهوم العولمة الإعلامية:

يشمل مصطلح العولمة الإعلامية مختلف أشكال الاتصال بشتى أنواعها المطبوعة، المسموعة والمرئية التي تقوم بنقل الأنباء والأفكار بين الأمم والشعوب عبر الحدود الإقليمية والدولية، ويعني نفوذ إعلام دعاة العولمة بكل مضامينها، فهو إعلام ينفرد بتقدم الوسائل التقنية ومؤهل لشتى التطورات المستقبلية فهو سلطة تقنية معقّدة، تفرض سلطانها رغم إرادة الدولة القومية، وتُثبّت أفكارا ليبرالية جديدة في مختلف المجالات قصد بسط الهيمنة، بَيْد أنّه لا يشكّل نظاما إعلاميا عالميا يحقق التوازن في تدفق الأنباء والمعلومات، ولا يتصف بالعدل كون مختلف مدخلاته قادمة من الشمال وكل مخرجاته تؤثر في الخرق الهائل لثقافة سكان الجنوب والعرب منهم.[3]

ويرتبط مفهوم العولمة الإعلامية بالثورة التكنولوجية التي ظهر تأثيرها بشكل كبير حيث بدت المعلومة وكأنها في تنافس مع غيرها نتيجة الاعتماد المضطرد على تكنولوجيات الإعلام والاتصال، فقد أصبحت أكثر من ألف وخمسمائة منظمة دولية تعتمد في مراسلاتها على البريد الالكتروني –إحصائيات 2002–وتجاوز عدد الرسائل يوميا عبر البريد الالكتروني 31 مليونا ليرتفع إلى حدود 60 مليونا بحلول العام 2006.[4]

ج– العولمة الإعلامية وتهديدها للهوية:

لاحظنا في أكثر من موضع تعدد تعريفات العولمة لكنها تلتقي في رافد مشترك وهو إصباغ الشيء صبغة العالمية، وقد بين المتوجسون منها أنها تصيب المجتمع في الصميم وتهدّد محليته وهويته التي تعبر عن

وحدة الذات « فالهوية أو identité حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية والتي تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات «[5].

وما دامت الهوية تعبيرا عن وحدة الذات فلا مجال لتجاوزها، فالتنوع الثقافي لا يعني بالضرورة إهمال الهوية وإنكارها ومن ثمّ الذوبان في هوية الآخر لأنّ هذا يعني فقدان الهوية في حد ذاتها.

وفهمنا للهوية يبنى على تراثنا الحضاري، فالهوية في ثقافتنا العربية الإسلامية هي الامتياز عن الأغيار من النواحي كافة، ولفظ الهوية يطلق على معان ثلاثة: التشخص والشخص نفسه والوجود الخارجي، وجاء في كتاب: الكليات لأبي البقاء الكوفي: أنّ ما به الشيء يسمى حقيقة وذاتًا، وباعتبار تحققه يسمى هوية، وإذا أخذ أعمّ من هذا الاعتبار يسمى ماهية، وجاء في هذا الكتاب أيضا أن الأمر المتعلق من حيث أنّه معقول في جواب (ما هو) يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار يسمى هوية»[6].

وإذا كان الحق في التنوع الثقافي واحدة من القواعد التي يسير بها القانون الدولي فذلك لا ينفي هويات الشعوب وخصوصياتها مثلما أكدت المواثيق الأممية والصكوك الدولية حيث أن مجموع الهويات الوطنية تشكل الهوية الإنسانية المشتركة.

وعند الحديث عن العولمة وتأثيراتها لاسيما في موضوع كموضوع بحثنا يبرز بشكل كبير تهديدها للهوية الثقافية، إذ أن الاحتفاظ بالخصوصية الثقافية في عهد العولمة الذي تعد الانترنت أداته العملية أصبح من الصعوبة بمكان؛ إذ أصبح بإمكان الفرد التفاعل مع ثقافات متنوعة ومتضاربة في آن واحد دون اعتبار حدود المكان.

ولا يخفى تأثير الدعوات التبشيرية في هذا الجانب وما يتفق عليه الجميع هو « كلما قل التنوع اللغوي والثقافي عبر الانترنت كلما هيمنت ثقافة واحدة على العالم هي ثقافة اللغة الانجليزية ونمط واحد يتعلق بالحياة الأمريكية»، فنسبة استخدام الانترنت تعكس ذلك حيث نسبة اعتماد اللغة الانجليزية هي 47.5 % وكل لغات العالم 52.5 % تشكل منها اللغات الأوروبية 23.5 % واللغة العربية 0.6% [7].. لا سيما إذا عرفنا ما تشكله اللغة من نقل للثقافة والحضارة.

ثانيا: المجتمع الافتراضي وخصائصه

أ-1 تعريف المجتمع الافتراضي

حسب قاموس الإعلام والاتصال communication and media of Dictionary فإنّ المجتمع

الافتراضي مجموعة من الأشخاص يتفاعلون في الانترنت مثل غرف الدردشة ويتبادلون الاهتمام[8].

أمّا «سيرج بروكس» فيعرّفه بـ «مجموعة الأفراد الذين يستخدمون منتديات المحادثة حلقات النقاش، أو مجموعات الحوار.. والذين تنشأ بينهم علاقة انتماء الى جماعة واحدة ويتقاسمون نفس الأذواق، القيم الاهتمامات ولهم أهداف مشتركة»[9].

ويعود مفهوم المجتمع الافتراضي إلى «هاواردرينجولد» الذي ألّف كتاباً في هذا السياق بعنوان المجتمع الافتراضي[10].

ولا يمكن تصوّر المجتمع الافتراضي من دون انترنت والتي أعطته آليات التعبير وأعطاها الأهمية التي أوصلت العالم الى الثروة الاتصالية الخامسة بعد الكلام والكتابة والطباعة والجماهيرية؛ فالمجتمع الافتراضي ما كان ليكون لولا مجتمع المعلومات الذي بدأت ملامحه حسب توفلر منذ عام 1956 حين تجاوز عدد العاملين في قطاع الإعلام والاتصال مختلف العاملين في القطاعات الإنتاجية الأخرى بالولايات المتحدة الأمريكية معتبراً إياه المرحلة الثالثة أو الموجة الثالثة بعد الموجتين: الزراعية والصناعية؛ إنّه مجتمع المعرفة والذكاء الإنساني[11].

لقد ولّد هذا العالم الافتراضي هويات جديدة مختلفة عن الهوية الحقيقية فتعدّد مواقع التواصل الاجتماعي التي لم تكن معروفة إلى وقت قريب هو تطور ترتبط به الهوية.

ويذهب غوفمانGoffman إلى ربط الهوية بتطور نظرية الدور، حيث العالم عبارة عن مسرح وعلى الفاعل الاجتماعي أن يُظهر قدراته ليلعب الأدوار المنتظرة منه[12].

أ-2 علاقة العالم الافتراضي بالعالم الحقيقي

ومع الشبكة العنكبوتية أصبح للعالم الحقيقي عالم موازٍ يأخذ الفضاء الرقمي مجالاً له، بل أصبح هذا العالم يتعاظم دوره «وماكانت الأنظمة والحكومات المتخلفة تستطيع إخفاءه من أخبار ومعلومات في الماضي لم يعد بإمكانها منعه من الوصول لكل الناس وبالتفصيل المملّ وعبر أكثر من وسيلة وتقنية متقدمة! ليس هذا فحسب بل أصبح صنع القرار الحاسم مرهونا بما تستطيع وسائل نقل المعلومات والتواصل الاجتماعي من تشكيل رأي عام حول هذه القضية أو تلك»[13].

فهذا العالم الافتراضي أثبت وجوده، وازداد انتشاره ما دام لا يعترف بالحدود الزمكانية ويتيح للمستخدم تمثّلات جديدة للعالم الحقيقي من نافذة العالم الافتراضي، لقد باتت مقاومة هذا العالم ضرباً من المستحيل بل إنّ التكيّف معه ومعرفة أخذ إيجابياته واتخاذه عاملا مساعدا وظلا للحقيقية التي توجد في العالم الواقعي

أصبح من الضرورة بمكان.

ب. خصائص المجتمع الافتراضي:

يأخذ المجتمع الافتراضي عديد الخصائص من بينها:

- ترتبط جماعاته بالمصالح المشتركة.
- يتقاسم أفراده نسبياً الاعتقادات والقيم والعادات نفسها، ويجمعهم الإحساس بالتضامن.
- لايوجد فيها حضور فيزيائي ولا تقارب جغرافي بين الأفراد إلاّ قليلا ولا وقتا حقيقيا فغالبا ما يكون الوقت متفاوتاً بين المدردشين المتباعدين جغرافيا.
- يتميّز بالعالمية.
- يتميّز باستعمال أفراده أسماء مستعارة وهويات مستعارة identity of Fluidity وبياناتهم غالبا ما تكون غير مطابقة للواقع[14].
- إنّه مجتمع أكثر قوة وفعالية من المجتمع الحقيقي وذلك لكونه يتشكّل بالسرعة وينتشر ويحقّق أهدافه بأقل قدر من القيود والحدود[15].

ومن بين هذه الخصائص تظهر تلك التي تشكّل هويات مستعارة ببيانات مختلفة للأسباب التي يشترك فيها مرتادو مواقع التواصل الاجتماعي.

ثالثا: الهوية الافتراضية وخصائصها

أ/تعريف الهوية الافتراضية:

تعرف الهوية الرقمية أو عبر النت بمجموع المعطيات والآثار المرتبطة باسم ما، (لقب، اسم،)، هذه المعطيات تشكّل جملة المعلومات الممزوجة في نماذج Des Formulaires عبر المواقع.

أمّا الآثار الرقمية فهي مجموع المقالات، التعليقات، الفيديوهات، الصور ووجهات النظر والمواقف مثل: الإعجاب J›aime التي من خلالهانتشارك في الويب، وفي الوقت نفسه ما يكتب أو يدرجه الآخرون حولنا[16].

إنّ الهوية الرقمية شكل خاص من الهوية فهي بعديد الأشكال ومن دون توقف في التنوّع.

«وتعدّ الهوية الافتراضية مظهراً من مظاهر العالم الرقمي، والتجارة الافتراضية والبريد الالكتروني والشبكات الاجتماعية والعوالم لافتراضية، حيث لم تعد مرتبطة في العصر الرقمي بجهود ثابتة، أو مصوغة ماديا كرخص القيادة أو الجوازات السفر مثلا، بل أنشأت العوالم الافتراضية والشبكات الاجتماعية مواطن للتفاعل بين الأفراد في النوع والطبيعة ... وعلى هذا الأساس ظهرت هذه الهويات الجديدة محمولة على نحو متزايد ولها القدرة على تجاوز أصولها والانتقال الى الشبكات الاجتماعية والعوالم الافتراضية الأخرى»[17].

ب/خصائص الهوية الافتراضية:

إنّ من أبرز خصائص الهوية في العالم الافتراضي أنّها غامضة، وأشخاص العالم الافتراضي مشتتون ومن هنا يمكن لأيّ مستخدم أن تكون له أكثر من شخصية متعددة بتعدّد لوحات المفاتيح التي يستعملها[18].

إنّها هوية تستفيد من خصائص الشبكة العنكبوتية كالتفاعلية مع نظيراتها ومع مختلف الأحداث المحلية الدولية، كما أنّها تأخذ التمكين خاصية لها بحيث تتجاوز حدود الزمان والمكان.

تتمتّع بحرية منقطعة النظير وتمارس بحقٍّ الحق في الاتصال لما تنفرد به من نقد ومشاركة.

إنّها صعبة المعرفة وإن عُرف أصحابها فإنّ مشاعرهم الافتراضية عادة ما تختلف عن المشاعر التي يتميزون بها في عالمهم الحقيقي وربما كانت هي المشاعر الحقيقية.

إنّها وإن تعاملت مع هويات أخرى تختلف معها فإنّها في كثير من الأحيان تنطلق من إرثها وثقافتها وتقدم نفسها من الذات الكلية وهو ما يؤكد الاستثناء الثقافي في مواجهة المثاقفة acculturation›L.

إذا كانت الهوية الحقيقية هي المعروف بها الانسان فإنّها قد تأخذ أشكالا متعدّدة مثل: هوية الواجهة، الهوية السلبية، الهوية في الموقف الدفاعي وغيرها..

وفي المجال الافتراضي فإنّ أكثر شكل استراتيجي تقترب منه هو هوية الواجهة: حيث يتظاهر الفرد بهوية أخرى غير تلك التي هو عليها فعلاً، في محاولة منه إمّا لتفادي الانتقاد أو بحثا عن الارضاء وهي ظرفية أو مستمرّة تعالج موقفا ما[19].

رابعا: لماذا اللجوء الى الهوية الافتراضية

إنّ لجوء المبحرين في الانترنت الى هوية أخرى فيه بحث عن حرية أكثر عنها هذا العالم الافتراضي وإن كانت تعالج قضايا ترتبط غالبا بالواقع الواقعي حيث أنّ المتابع للقضايا السياسية يجد ذلك التفاعل الذي يبديه

المطّلعون على الصحف الإلكترونية أو النسخ الإلكترونية للجرائد الورقية، وفي عديد الاحيان تجاوز الرأي إلى تعقيب على بعض الآراء وقد بلغت هذه العملية ذروتها في القضايا الكبرى كالانتخابات الرئاسية أو تعديل الدستور وانخفاض أسعار المحروقات أو محاكمة سوناطراك وغير ذلك والمتأمّل للمشاركة السياسية الواقعية يلاحظ تراجعها ونقصها لدى فئة الشباب وهي الفئة الأكثر إبحاراً عبر الانترنت وفي المقابل يرصُد التعليقات والتعبير عن الواقع بالاختيار هويات أخرى مثل سعيد الجزائري، ناصر الحق... فما يعرف بالاغتراب السياسي أو عدم مشاركة المواطن في الشأن السياسي العام ليس نفسه في العالم الافتراضي حيث أنّنا نسجّل اتصالا سياسيا الكترونياً بين مؤيّد ومعارض أو على الأقل مبدِ لرأيه وهو ما يفسّر ضرورة لجوء المترشحين والأحزاب الى التسويق السياسي الإلكتروني، تماشيا مع فئة يتزايد حجمها ويقوى تأثيرها؛ لكن السؤال الذي يطرح نفسه ما الضامن لمشاركة هؤلاء الانترنيتيين سياسيا وهم يأخذون هويات أخرى تختلف عن هوياتهم الحقيقية وربما أخذ الواحد أكثر من هوية بحسب المواقع التي يتعامل معها، إنّ هذه المشاركة الفعّالة في الأنترنت تعود للرحابة التي تنتجها والحريّة بعيدا عن أيّ قيدٍ.

خامسا: هل نحتاج لعلم نفس افتراضي؟

إنّ الواقع الافتراضي كما يسمّيه كل من «صوفي كوتي» و»ستيفان بوشار» يساعد عالم النفس في مراقبة تصرفات الانسان ومختلف الاضطرابات التي يمكن حدوثها02، وبالتالي تفاديها أو التحكم فيها ومواجهتها وإن كانت الصعوبة في معالجة هذا الانفصام الافتراضي لأننا قد نجد أنفسنا أمام أكثر من هوية افتراضية لشخص بعينه، والأمر ليس كلّه سلبيا فثمّة إيجابيات يجدر الأخذ بها ومعرفة الأسباب الحقيقية لتقمّص هوية أخرى غير تلك الموجودة في العالم الحقيقي، وهو أمر تتيحه الدراسات الامبريقية للتوصل إلى نتائج تتيح تقليص الهوة بين الهويتين الحقيقية والافتراضية مع ضرورة تكييف البرامج مع العالم الافتراضي تحصينا للهوية العامة التي ستكون مهدّدة إن تجزأت وغارت في الافتراضية التي تستفيد من التكنولوجيات الحديثة مع البحث في عالم هلامي متشعّب تصعب مراقبته إذ الهوية المحصّنة في الحقيقية محصّنة وإن تحوّلت الى افتراضية.

خاتمة:

إذا كان لكل واحدٍ منا هوية حقيقية؛ فكم هوية افتراضية يفترض فيها؟ وهل لكل واحد منا بالضرورة هوية افتراضية؟

ولماذا الاختلاف بين الهويتين؛ أسئلة ترافق الباحث الى خاتمة تودّ أن تعطي الإجابة لكن موضوعنا يأخذ بنا بعيداً في استخدام منظومة علمية متكاملة ترتبط بما هو واقعي وما هو افتراضي فما دامت علاقة الفرد بمحيطه تُدرس في علم النفس الاجتماعي؛ وفي الجوانب السياسية يتموضع علم النفس السياسي وهكذا..؛ فلماذا لا

نفكّر في علم نفس افتراضي يدرس هذه الهويات الجديدة؟

الهوامش

1/خيرت معوض محمد عياد، الهوية العربية كمتغير في معالجة الصحافة العربية للغزو الانجلوامريكي للعراق، مداخلة بالمؤتمر العلمي السنوي العاشر « الإعلام المعاصر والهوية العربية » 6-4 ماي 2004 كلية الإعلام جامعة القاهرة.

2/المرجع نفسه.

3/حسن طوالبة، في الإعلام والدعاية والحرب النفسية، عمان، جدار الكتاب العالمي، إربد عالم الكتاب الحديث، 2006، ص350.

4/ Thomas E. Harris' Mark D. Nelson' Applied organizational communications N.Y London' Lawrence Erlbaum Associates' 3rd edition' 2008' p379.

5/عبد العزيز التويجري، الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي، الإسلام اليوم عدد 15، 1419هـ/1998م، ص 19.

6/عبد العزيز التويجري، مرجع سبق ذكره، ص 18.

7/بسيوني إبراهيم حمادة. دراسات في الإعلام وتكنولوجيا الاتصال، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ص ص 68، 69.

8/مريم ناريمان نومار، استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية، مذكرة ماجيستير غير منشورة، جامعة باتنة، 2012، ص 88. نقلا عن:

Marcel Danesi (2009) dictionary of media and communication' USA library of congress cataloging in publication data. p.300.

9/المرجع نفسه، ص 88.

10/إيمان بن دعدوش، الشبكات الاجتماعية وبناء النضال الافتراضي، المؤتمر العربي حول تمكين الشباب

ومنظماتهم ودعم مبادرات المجتمع المدني في الدول العربية جنوب المتوسط 24-22 مارس 2002، مالطا.

11/محمد لعقاب، مجتمع الإعلام والمعلومات، الجزائر، دار الهومة، 2003، ص ص 69-68.

12/كاري نادية أمينة، العامل الجزائري بين الهوية المهنية وثقافة المجتمع، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع، غير منشورة، جامعة تلمسان 2012-2011، ص 04. نقلا عن:

.Goffman E.la mise en scène de la vie quotidienne

13/عبد الله رشيد، لزمن الإعلامي الجديد وصناعة القرار الحاسم، مجلّة الإعلام والعصر، أكتوبر 2012، عدد 17، ص 33

14/إبراهيم بعزيز، الاستخدام المفرط لوسائل الاتصال الحديثة من طرف الأفراد، لملتقى الوطني تأثيرات وسائل الإعلام الجديدة على الأفراد والمجتمعات، جامعو فرحات عبّاس، سطيف، 2010. نقلا عن:

Louis L. " Impacts of net-generation attributes' seductive properties of the internet' and gratifications-obtained on internet use" Telematics and Informatics' N°20 (2003) pp 107-129.

15/فهد بن عبد الرحمن الشميري، التربية الإعلامية، الرياض، مكتبة الملك فهد 1431 هـ 186.

16 Français Filliettaz' Comprendre l'identité numérique. Direction des systèmes d'information et service écoles-médias' Genève' janvier 2011' p.8.

17/مختار جلولي، بن عيشة عبد الكريم، الشباب وممارسات الهويات الافتراضية عبر شبكات التواصل الاجتماعي، ملتقى المجالات الاجتماعية التقليدية الحديثة وإنتاج الهوية الفردية والجماعية في المجتمع الجزائري، جامعة ورقلة 26 نوفمبر 2014.

18/Judith S. Donath' in Kollock' P. and Smith' M (eds) communities in cyber space' London: Routledge 1998' p.1.

19/كاري نادية أمين، م س ذ ص54.

20/ Sophie Côté’ Stéphane Bouchard’ La réalité virtuelle’ un outil novateur en psychothérapie’ Magazine Psychologie Québec’ Juillet 2006.